عدد الحرب

عند العرب

لمحمد عبد الغني حسن

قال أبو فراس الحمداني

أنا إذا اشتد الزمـ ـن وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم

أما الفخر بالكرم فهو موضوع نرجىء الحديث فيه الى وقت آخر، وأما (عدد الشجاعة) فذلك موضوع نجد الكلام فيه اليوم ملائماً والحديث عنه الآن مستملحاً في وقت يفتخر فيه أبطال الحرب القائمة بمغامراتهم، ويمتز أبطال الجو بشجاعتهم، ويتيه أعضاء «الكوماندوز» فيه بمخاطراتهم ومجازفاتهم

وعدد الشجاعة تختلف تبعاً للزمان والمكان، فهي عند الرومان غيرها عند العرب القدماء وهي في العصور القديمة غيرها في العصور الحديثة، وهي في العصور المظلمة غيرها في عصور النور

ولا شك أن شاعرنا الحمداني يقصد بعدد الشجاعة في شعره الحماسي الافتخاري: الخيل والسيوف والرماح والقسي والنبال والدروع والتروس وما اليها من أدوات القتال في العصور السابقة على الاسلام والتالية له بكثير

أما اليوم فاذا أذن المقام لشاعر اوربي أو أمريكي أن يفتخر بعدد شجاعته — والفخر طبيعة في النفوس — فاذا يقصد بتلك العدد؟ لا شك ان العدد القديمة قد تولى زمانها ودالت دولتها. ولم يعد للرمح والسيف والقوس والنبل ما كان لها من المقام في العصور السوالف وتنازلت الخيل عن رفيع مكانها. والسيوف عن مشهور سلطانها، وتخلت الرماح عن عاليتها وسنانها الى المدفع القاصف والرصاص المدمدم، والقذائف المهدّمة والطوربيد الخارقة والناقلات المحطمة والدبابات التي تدب على الارض لا تبالي سهلاً ولا حزناً، ولا مرتقماً ولا منحدراً، ولا تمر ببقعة الا ذللتها. ولا ذرة من الارض إلا مهدتها تصيب الاهداف ولا تصاب، وتصيب المسالح ولا تهاب

ومن حظ التاريخ أن عُدد الشجاعة القديمة لم تضع بأوصافها وآثارها، وإن ضاعت

باستعمالها وتداولها . فقد خلدها الكتاب وسجلها الشعراء . ولا تكاد تقرأ شعراً حماسياً لفارس كعنترة او شجاع كمالك بن نويرة أو جريء كعروة بن الورد أو متحمس كعمرو بن كلثوم الا وجدت فيه وصفاً شاملاً للخيل العاديات والسهام المسمومة والقسي المرنانة

* * *

وأول عدد الشجاعة عند العربي الخيل فقد آثروها على غيرها ، وفضلها بعضهم على الأولاد وفلذات الاكباد ، واستكرموها للزينة والطراد . وقد يطوي العربي وخيله شبعى ، ويظمأ وجياده راوية . والى هذا يشير شاعر من بني عامر بن صعصعة بقوله :

بني عامر ما لي أرى الخيل أصبحت　　خماصاً وبعض القمر للخيل أفضل

بني عامر ان الخيول وقاية　　لانفسكم والموت وقت مؤجل

متى تكرموها يكرم المرء نفسه　　وكل امرىء من قومه حيث ينزل

ولامرىء القيس أبيات في وصف فرسه من معلقته نكتفي بالاشارة اليها ولا نذكرها لمكان شهرتها وانتشارها في كتب الأدب .

وقد عني العرب باختيار الخيل واختبارها والفراسة فيها حتى أصبح ذلك فيهم علماً مبنياً على التجربة لطول ممارستهم لها وكثرة اعتمادهم عليها . والعربي ينظر الى الفرس في جميع حالاته وعلى كل هيئاته ، وذلك في سكونه وحركته وقيامه وربوضه ومشيه وعنقه وخببه وتقريبه ، فقل أن تخطئه الفراسة أو تند عنه التجربة . والفرس الكريم هو الذي يقول جرير الشاعر في مثله :

وقد قربوا حين جد الرهان　　بسام الى البلد الأبعد

يقطع بالجري أنفاسهم　　بثني العنان ولم يجهد

والى إيثار الخيل واعزازها تشير أبيات الاخطل التي قد تنسب الى عبد الله بن عباس وهي :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها　　فان العز فيها والجمالا

اذا ما الخيل ضيعها أناس　　ضممناها فشاركت العيالا

نقاسمها المعيشة كل يوم　　ونلبسها البراقع والجلالا

وقد يتخذ العربي من فرسه معقلاً له وحصناً يأوي اليه كما قال لبيد : —

معاقلنا التي نأوي اليها　　بنات الأعوجية والسيوف

* * *

أما السيوف فلها في تاريخ العرب مقام يلي مقام الخيل ، والحق أن الفارس لا تتم له الفروسية الا بصهوة جواده وقائم سيفه . وما قيمة الفرس بغير سيف ؟ والعرب تقول في السيف أنه ظل الموت ولعاب المنية ، وهي كناية لطيفة ، ومن مأثور الكلام عندهم « السيف هو

الصاحب الولي ، والصديق الوفي ، والرسول الوحي — أي السريع الفصل في الامور) . وقد فضل أبو تمام السيف على القلم في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهنّ جلاءُ الشك والريب

والموازنة هما لطيفة بين السيف والقلم ، وان كان الشاعر لم يثبت على رأي : فقد فضل القلم في قصيدة أخرى يقول فيها : —

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأريُّ الجنى اشتارته أيد عواسل

والغالب في الضرب بالسيف ان يكون طعناً كالرماح ، وقد يكون ضرباً كالعمود أو قطعاً كالسكين أو إهاباً كالسوط

وشرط السيف أن يكون ماضي الحد حسن الماء سريع القطع ، ولا يكفي ذلك كله ما لم يكن السيف في يد البطل ، فما قيمة السيف البتار في يد لا تعرف الضرب ؟ ويروون في ذلك أن عمر بن الخطاب سأل عن أمضى سيوف العرب فقيل له صمصامة عمرو بن معديكرب الزبيدي فبعث اليه عمر أن يبعث اليه بسيفه ، فلما ضرب به الخليفة وجده دون ما كان يبلغه عنهُ ، فكتب اليه في ذلك فردَّ ابن معديكرب قائلاً : اني بعثت الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث اليه بالساعد الذي يضرب به . وهو السيف الذي يقول فيه الشاعر : —

وكأنَّ المنون نيطت اليه فهو من كل جانبيه منون

ولاشك ان كثرة الضرب بالسيوف تترك فيها أثراً وتدع فيها فلولاً . وذلك صفة مدح في صاحب السيف تدل على طول ممارسته للمقارعة والمصاولة . فقد مدح النابغة الذبياني ممدوحيه بقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب

وهذا الكلام يشبه الذم ولكنهُ المدح كل المدح ، ويسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم . والفارس البطل يفخر أن يكون في مضرب سيفه آثار الضرب وفلول القراع كما قال بشر بن عوانة :

وفي يماني ماضي الحد أبيض يضربه قراع الموت أثرا

وكانت أحسن السيوف العربية وأوسعها شهرة تصنع في مشارف اليمن أو بلاد الهند فقيل للسيف مشرفي ويماني وهندواني ومهند . وكل معركة قاتلة تحتاج الى مقاتلة من هذين

ومشاركة من جانبين إلاّ المنون فانها تقتلنا من غير قتال . والى هذا أشار المتنبي في مطلع لاميته المشهورة

نعد الشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

ولقد اهتمّ العرب بالسيف اهتمامهم بالفرس ، لأنه من عدد الشجاعة عندهم ، فوضعوا له الأوصاف التي تدل على معان فيه ، كما وضعوا له الاسماء الكثيرة ، فمن أسمائه التي تحمل معنى الصفات : الصقيل والمفصل والمخذم والجراز والباتر والعضب والقاضب . ومن توابع السيف حمائله التي يعلق بها ، ومفردها حمالة ، وهي النجاد أيضاً . والقراب ما يوضع فيه السيف وهو الغمد والجراب

ومن جماعة الشعراء الفوارس من افتخر بسيفه وحسن ادارته له وتقليبه في كفه وخاصة في العصر الجاهلي الذي اشتهر بكثرة الغارات والحروب ، كطرفة بن العبد صاحب المعلقة التي يقول منها :

وآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب صقيل الشفرتين مهند
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة اذا قيل مهلاً قال حاضره قد

ومن شعراء الاسلام من كانت حقيقة شجاعته دون وصفه ، وكانت فروسيته أقل بكثير من افتخاره ، كابن المعتز الذي أحسن وصف السيف وتشبيهه ولكنه لم يحسن استعماله فوثب عليه غلمان المقتدر وخلعوه ، وخنقه الخادم مؤنس ، ولم ينفعه سيفه الذي يقول فيه : —

ولي صارم فيه المنايا كوامن فما ينثني إلاّ لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنهُ بقية غيم رقّ دون سماء

* * *

والرمح هو عدة الشجاعة الثانية ، وله في أيام العرب حديث يطول ، فما خلا منهُ شعر ، ولا قامت بغيره معركة وقد أوصى النبي باستعماله فقال : « عليكم بالقنا والقنيّ فيها نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » . وكان له عليه السلام أربعة أرماح : رمح يسمى المثنى والثلاثة الباقيات أصابها في موقعة من سلاح بني قينقاع

وأفضل الرماح — كما ذكرت العرب — ما اذا هززته لم يتعطف ، واذا ضربت به لم ينقصف ، وشرها الذي اذا أكرهته انحطم واذا طعنت به انقصم . ولقد قامت للرمح في بلاد العرب صناعة اشتهر بها المثقفون الذين يقوّمون الرماح ويجعلونها مستقيمة صعدة . والثقافة هي صناعة تثقيف الرماح أي تقويمها ، ومنهُ الكلمة الحديثة « الثقافة » التي تستعمل ترجمة لكلمة Culture الانكليزية لأن فيها معنى تثقيف العقول

ومن أبدع ما قيل في الرمح قول القاضي الشريف أبي القاسم الحسين الاندلسي :

وأصم مطول الكعوب اذا اقتضى مهج الكماة قديته لا يمطل
متوقد حتى أقول أذابل بيدي منه أم ذبال مشعل
لولا التهاب النصل أينع عوده مما يعل من الدماء وينهل
فاعجب له أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

* * *

والقسيّ هي عدد الشجاعة الرابعة ، فهي من ألزم لوازم الفرسان بعد الفرس والسيف والسنان . وكان النبي عليه السلام يستعملها ويخطب عند الحرب وهو متكئ على قوسه . وكان له منهن أربع قسي ذكرت كتب السير أسماءها

والقوس نوعان قوس اليد وهي المستعملة في بلاد العرب ، وقوس الرجل وكانت تستعمل في بلاد الاندلس ، وقد أخذها عرب اسبانيا من الفرنجة

وأحسن أنواع القسي ما اتخذ من النبع وهو عيدان شجر بري ، على ان كثيراً من القسي اتخذت من عيدان شجر النارنج والسفرجل والتفاح . وقد وضع العرب للقوس والنبال أسماء وسموا الرماة بحسب توفيقهم في الاصابة . واشترطوا في حديد السهام شروطاً وقسموه أنواعاً . فمنه الحديد لسهام الصيد ، والحديد للسهام التي تخترق الدروع والتروس ، والحديد للسهام التي تحرق السفن والابراج

***

أما الدروع والتروس وأشباهها فهي تتمة عدد الشجاعة في العصور القديمة ، وقد انتهى اليوم زمانها ، ولم يبق منها إلا الخوذة أو البيضة التي توضع على الرأس ليتقي المحاربون بها شظايا القنابل ، والخوذة على الرأس أخف حملاً من الدرع على الجسد ، وهي لا تعوق المقاتل عن تأدية واجبه كما تصنع الدرع التي تعطل الحركات في حرب تحتاج الى السرعة والخفة في الغدوات والروحات

هذه خواطر سريعة في عدد الشجاعة القديمة ، جمعتها من مطالعات مختلفة واستأنست فيها بكتاب قيم اسمه «حلية الفرسان وشعار الشجعان» وهو بعينه القسم الثاني من كتاب «تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس» وهذا الكتاب مخطوط ولكنه طبع «بالزنكوغراف» — كما طبع كتاب الانساب للسمعاني في اوربا — بالخط المغربي وأشرف على تصحيحه واخراجه المستشرق الفرنسي لويس مرسيه قنصل فرنسا في بلاد المغرب في حينه ، اما مؤلف الكتابين: الحلية والتحفة فهو علي بن عبد الرحمن بن هذيل من علماء الاندلس وأدبائها في القرن الثامن الهجري